



-4-

كم كنت أعجب عندما أشاهد صور المجموعات في بعض بلدان إفريقيا وصور كوارث الفيضانات والأعاصير في بعض بلدان جنوب آسيا، فأرى أناساً يجلسون ذاهلين خاملين ينتظرون الموت، وكنت أقول لنفسي:

لقد تفوقت الحيوانات العجماءات التي لم توهب إلا الغريبة على أولئك العقلاء الذين وهبهم الله العقل والإرادة، فلو أن التي ضربها الجوع كانت طيوراً تطير في السماء أو دواباً تدب على الأرض لانطلقت ساعيةً باحثة عن الرزق في أي مكان.

ألا ترون إلى الهرة كيف تطوف تتسلّم الأرض تبحث عما يسد الرمق؟ أليكون الواحد من أبناء آدم أعيى من القطاط؟
لقد فكرت فوجدت أن الفرق بين الأمم الحية والأمم الميتة هو الهمة والعزمية والمبادرة والثقة بالنفس، فإن الأممات يتظرون النجدة من غير أنفسهم، والأحياء يعتمدون على أنفسهم لا على الآخرين. الأمم الحية هي التي تجعل من الصعب فُرّصاً للتقدم والنجاح، والأمم الميتة هي التي يصوّر لها عجزها ويأسها الفرصة صعباً مستعصية على العلاج، وإنني لأرجو أن يكون السوريون من الأمم الحية لا من الأمم الميتة. لقد كان أبناء هذه الأرض على الدوام مثلاً ماضروباً في النشاط والإبداع وعلى الهمة والقدرة على النجاح، ولن يكون أولاد اليوم الجديد إلا خيرٌ وراث لأمجاد الأسلاف إن شاء الله.

يا أيها السوريون الكرام:

لا تنتظروا المنقذين من خارج الحدود، فما أدرّاكم أنهم سيأتون؟ وكيف تتسع طاقتهم -إذا جاؤوا- لتكتفي الملائكة؟ لا، إن المرء لا ينقذه إلا عمل نفسه، فقوموا فابحثوا عن كل ثغرة قائمة ثم أبدعوا خيراً الوسائل لسدّها. ما عال من صنع ولا جاع من زرع، فازرعوا واصنعوا وأبدعوا وتوكلوا على الله.

ليكن هم كل جماعة أن تكتفي نفسها، فإن كفایات الجماعات الصغيرة عمل تراكمي من شأنه أن يكتفي الناس جميعاً، وخير وسيلة لتحقيق ذلك هي "التعاونيات".

إنها مشروع صغير يتعاون في تحقيقه العددُ القليل من الناس فُينتجون ما يكفيهم في بعض جوانب الحياة، وهو مشروع ذاتي يقوم به الناس بأنفسهم لخدمة أنفسهم، يتحركون بما آتاهم الله من قدرات وما تملكه أيديهم من موارد ولا ينتظرون النجدة من الآخرين.

-5-

إن بعض مئات من الأسر تقيم في قرية من القرى أو في بعض أحياء المدن الكبيرة يمكنها أن تنشئ مشروعات تعاونية ناجحة تكفيها وتُعنّيها عن استجداء المساعدة من الآخرين، فيرعى بعض الرجال مشروعًا زراعيًّا وحيوانيًّا يُنْتَجُ الخضراء والفاكهة والبيض ولحوم الدواجن وألبان الماشية، وتنشئ بعض النسوة دار خياطة يكفي إنتاجها لكسوة كبار الجماعة وصغارها. ولا بد أن يوجد في الجماعة معلمون ومعلمات فيعلمون التلاميذ والتلميذات، وطبيب ومسعفون وممرضات يقدمون الرعاية الطبية، وبعض الفتيان المهرة الذين يقومون بصيانة وتشغيل ما تملكه الجماعة من أجهزة منزليّة وطبيّة وأجهزة اتصالات وغيرها من آلات وأدوات، ومهندس مع بعض البنائين والعمال لترميم البيوت المصابة وإنشاء مساكن متواضعة بدلاً من تلك التي يهدمها قصف نظام الإجرام... إذا نجحت الجماعة في إنشاء وإدارة عدد قليل من المشروعات الأساسية فإنها ستكتفي ذاتياً وتستغنّي عن المساعدة والإحسان.

لو أُنْتَنا نظرنا فسوف نجد أن كل جماعة من الناس في أنحاء سوريا جمِيعاً تملك من الموارد والأيدي العاملة ما تستطيع به إنشاء أمثال تلك "التعاونيات" وصولاً إلى الاكتفاء الذاتي؛ إنما تنقصهم الكفاءات الإدارية التي تستطيع إبداع المشروعات ورسم الخطط وتحفيز الهم وتحمّل الموارد المادية والبشرية وتنظيم فرق العمل. هؤلاء الناس ليسوا كثيرين ولكنهم موجودون دائمًا، إنهم هم "الرّواحّل"، القيادة الأفذاذ الذين أشرت إليهم في مقالتي السابقة، وهم محل الخطاب في هذه المقالة:
يا أيها المتميّزون المباررون الأكفاء:

إنكم تعرفون أنفسكم وتعرفون أنكم تستطيعون أن تساعدوا الناس وأن تصنعوا الكثير، فإن أضعتم الأمس فلا تضيّعوا الغد؛ ابدعوا بالعمل من فوركم ولا تنتظروا توجيهًا ولا تنظيرًا من أحد من الناس. ابحثوا عن كل حاجة من حاجات الجماعة التي تعيشون معها وأشّووا لكتابتها "تعاونية" من أهل الحي أنفسهم وباستثمار الموارد المتاحة بين أيديكم، ولا تحمّلوا أنفسكم ولا تحمّلوا الناس ما لا يطيقون. لا نريد من أي "تعاونية" إلا أن تكفي جماعتها فحسب، ولو أن هذا الهدف تحقق فقد كفينا أهل سوريا جمِيعاً.

-6-

بقيت تتمة لا بد منها لضمان تنفيذ هذا المشروع:

إن من الاحتياجات ما لا تكفي لتطبيقه الهمُّ والكافاءات المحلية والموارد المتاحة في أيدي الجماعات الصغيرة، ولا بد له من دعم من خارجها، إما بالمال أو بالخبرة والتدريب أو بالآلات والمواد. فلو أن الجماعة أنشأت مخيطه فإنها قد ينقصها القماش الذي تخيطه ملابس ثُلَّبَس، ولو أنها شغلت مخبزًا فإنها ستحتاج إلى الدقيق الذي تخبزه خبزاً يُؤْكَل، وربما احتاج طبيبُ العيادة إلى أدوية وأدوات وخطيبُ الجامع إلى كتب ومراجع، واحتاج التلاميذ إلى دفاتر وأقلام والمزارعون إلى بذور وسماد، إلى غير ذلك مما لا يتوفّر في أيدي الجماعة من الجماعات الصغيرة الكثيرة التي ستنتشر وتنتشر في طول سوريا وعرضها. فماذا تصنع؟

هنا يأتي دور الهيئات والمنظمات الإغاثية، فإنها ينبغي أن تقدم دعم "التعاونيات" المنتجة على دعم سواها من الجماعات غير

المنتجة، فتوفر لها الأدوات والآلات وتمدها بالنصائح والخبرات. إن كلاً من تلك الجماعات قائمة على نهر، ولئن مددناها بصيارة للصيد ومقالة للقلي خير لنا من تزويدها ببعض الأسماك كل يوم، ويوم تكتفي الجماعات الصغيرة وتنجح في معركة البقاء فإن سوريا كلها ستكتفي وتمضي في ثورتها إلى آخر الطريق بإذن الله.

[الزلزال السوري](#)

المصادر: